

النثر العباسي في دراسات شوقي ضيف

د. سعيد منصور

لم ينل النثر العربي من عناية مؤرخي الأدب العربي في دراستهم للعصور الأدبية المختلفة، مثل ما ناله في تاريخ الأدب العربي للأستاذ الدكتور شوقي ضيف، على كثرة من أرخوا للأدب العربي منذ بداية هذا القرن، وكثرة ما كتب من دراسات وبحوث عاجلت هذا الحشد الضخم من موضوعات الأدب العربي، وأعلامه، واتجاهاته، وفنونه.. وتود هذه الكلمة أن تنحصر في دراسة شوقي ضيف للنثر الفنى في «العصر العباسي»، الذي تناوله جزءان من سلسلة تاريخ الأدب العربي، التي بلغت حتى الآن ستة أجزاء. كما تناوله أيضًا كتاب «الفن ومذاهبه في النثر العربي»، ولقد سارت هذه الدراسات، وستسير بإذن الله، بكل ما اتصفت به بحوث أستاذنا الجليل من دأب واستيعاب عبر منهج تاريخي تحليلي، يرصد حركة التطور ويتابعها، ويقف عند مظاهر ازدهار الفن فيها، وينفذ إلى ما وراء ذلك من أسباب ترجع إلى تأثير الحياة السياسية، والاجتماعية، والعقلية، في كل فترة من فترات هذا التطور.. ثم هي بعد ذلك، تقف عند الفنون والموضوعات، ترد ذلك كله إلى أعلام الكتاب، من أصحاب كل فن وموضوع، لتخلص من ذلك إلى النصوص الأدبية النثرية، تستخرجها من مظانها الأولى ومصادرها الأصلية، لتحلل النص وتستقرنه وترجعه إلى الأصل، أو المذهب الفنى الذى صدر عنه.

كان لا بد إذن - وهذه هي صورة المنهج في إطارها - العام - أن تكون هذه الوقفة عن الحياة في العصر العباسي، بمراحلتيه الأولى والثانية في أشكالها الكبرى.. صورة الحياة العباسية في شكلها السياسي.. وما يتصل به من أحداث كبرى. وفي شكلها الاجتماعي وما يتصل به من مشكلات اقتصادية، ثم في شكلها العقلي وما يتصل به من شئون دينية وثقافية، ثم ما يتبع ذلك كله من دفع تيار الحضارة الإسلامية في جداولها الكبرى، التي يستمد منها الشعراء كما يستمد منها أدب الأدباء، وفكر الكتاب واتجاهات النثر العربي كل ما يدبج من رسائل فنية، وما يؤلف من مؤلفات أدبية، وما يجرى على ألسنة الخطباء من خطابة لا تغفلها النظرة الشاملة، أجرى الحياة الأدبية في الجداول التي تجري فيها تيارات النثر العربي.

فإذا ما رجعنا إلى الحياة في العصر العباسي الأول، وقد انتقلت عاصمة الدولة شرقاً إلى العراق - تتمخض عن نظم سياسية وإدارية جديدة تؤثر من غير شك في اتجاه حركة التأليف، بل توجه أيضاً حركة الترجمة بكل ما تشعبت إليه من شعب، وما سلكت إليه من دروب، وما بعثته علوم الأوائل من مؤثرات ثقافية وفكرية ومذهبية. يقول شوقي ضيف:

«بذاك عمت الروح الفارسية في الحياة العباسية، حتى الخليفة نفسه، لم يعد كأسلافه الأمويين، يمثل شيئاً كبيراً من شيوخ القبائل العربية، بل أصبح خلفاً للملك الفرس الساسانيين، فله وزراؤه وحجابه وبلاطه، وله نفس التقاليد الفارسية.. والذي لا ريب فيه أن هذه الثقافات الدخيلة التي نقلت إلى العربية وسعت طاقتها، بما اكتسبت من المعاني العقلية والفلسفية، وقد أصبح النثر العربي نثر ثقافة متشعبة، تمدها روافد كبيرة من إيران والهند واليونان، وليس ذلك فحسب، فقد أخذت تدخل في هذا النثر طرائق النظر الأجنبية وأساليب الأجانب في تفكيرهم، والذي لا ريب فيه أيضاً أنه قام على هذا العمل نخبة من رجال الفكر الذين يحسنون اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها، فإذا هم يستخدمون أسلوباً مولداً جديداً يحتفظون فيه للعربية بصورتها النحوية والتركيبية.. وكانوا كثيراً ما يضيفون شيئاً جديدة، ولكنهم لم يتعدوا بها عن تراكيب العربية، ومن يقرأ كتب ابن المقفع، وهو من أوائل المترجمين يرى كيف استطاع أن يضيف على أساليبه الطوابع العربية تامة كاملة، وبذلك اتسعت لغة الصحراء، وأصبحت لغة ثقافية ذات أسلوب مرن، يستوعب كل ما لدى الأجانب من كنوز المعرفة، ومذاهب الفلسفة، مما كان له أثره في الأدب نثره وشعره.. وعلى هذا النحو أصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدد الفروع، فهناك النثر العلمي، والنثر الفلسفي، والنثر التاريخي والنثر الأدبي الخالص، وكان في بعض صورته امتداداً للقديم، وكان في بعضها الآخر مبتكراً لا عهد للعرب به، على شاكلة ما هو معروف في كتابات سهل بن هارون والجاحظ. وظلت الخطابة مزدهرة في أوائل هذا العصر. وإن كان قد أسرع الذبول إلى الخطابة الحقلية، إذ لم تعد القبائل تقدم بوفودها على الخلفاء، كما كان الشأن في عصر بني أمية، أما الخطابة السياسية فظلت فترة نشيطة، بحكم دعوة بني العباس لأنفسهم. حتى إذا استقام لهم الأمر أصابها ما أصاب الخطابة الحقلية من الذبول»^(١).

كانت هذه الصورة العامة للتطور الذي شهده النثر العربي في العصر العباسي الأول، تبعه تطور بعيد في النثر العربي، شهده بعد ذلك العصر العباسي الثاني، حيث اتسعت - كما يقول شوقي ضيف «الطاقات المستكنة» في اللغة العربية؛ ليحمل النثر العربي في أوانيه الثقافات

(١) الفن ومذاهبه في غلثر العربي ص ١٢١، ١٢٤ - ١٢٦.

الأجنبية المختلفة «حملا لا يزال يروع الباحثين» (العصر العباسي الثاني ص ٥١٣)، وقد تقدمت بيئة المتكلمين في هذا العصر أيضًا من أجل «وضع قواعد البلاغة العربية.. وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربي، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية» (ص ٥١٨)، مثل ما فعل الجاحظ في البيان والتبين، كما قدمت بيئة اللغويين كتبًا مختلفة، منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغريبة، وبعض أخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب.. وكتاب الكامل للمبرد.. وأدب الكاتب لابن قتيبة.. وعلى ضوء هذين الذوقين اللذين مثلتهما بيئة المتكلمين وبيئة اللغويين، صنف إبراهيم بن المدبر رسالته العذراء، يقول شوقي ضيف: «هي أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر.. وآداب الكتابة.. فيطلب ممن يريد حذقها طول الاختلاف إلى العلماء.. ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين، والموقوف على الأشعار، والأخبار، والسير، والأسماء، والخطب ومحاورات العرب، ومعاني العجم، وحدود المنطق، وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم». (العصر العباسي الثاني ص ٥٢١).

وفي متابعة هذا التحليل الدقيق لتلك البيئات التي عنيت بحركة النثر العربي في تيار الحياة الأدبية، تأتي «بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان يهيج نهجهم في الدعوة لمعايير البلاغة العربية، ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة في مجال النثر والكتابة.. هو الكتاب الذي نشر باسم نقد النثر منسوبًا إلى قدامة بن جعفر..» (العصر العباسي الثاني ص ٥٢٣). ويتوقف شوقي ضيف لتقييم أثر هذه البيئات المختلفة، بما أضافته إلى دفعة التطور، فيرى أن «بيئة المتكلمين هي التي سيطرت بما وضعته من معايير على أذواق الكتاب والأدباء في العصر، وظل ذلك حقبًا متطاولة، وهي بيئة كانت تزواج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة، كما ظلت مقوماتها حية، مقومات تعتمد على التراث القديم، وتتطور ما يلائم العصر والثقافات الحديثة، تطورًا لا يجنى على العربية، بل تجنى منه ثمارًا رائعة، غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح. على هذا النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبي العام، وكان لذلك أثره في أن ازدهر النثر العربي وأخذت موضوعاته تتنوع تنوعًا واسعًا، وقاد هذا الازدهار الجاحظ المتكلم المشهور (ص ٥٢٤).

وهذا التحليل ترد اتجاهات النثر العربي في عصر من أزهي عصوره إلى أحضانها التي خرجت منها.. وبيئاتها التي ترعرعت فيها.. وأصولها التي أخذت عنها.. بل إنها في الحقيقة هي اللعل والأسباب التي أدت إليها. وتقضى هذه النظرة الشاملة لتتابع مسيرة النثر العربي، التي اندفع بها في طريق التقدم لتتعدد في العصر العباسي فنونه الأدبية في صورتها القولية والكتابية، إن هذه الصور لتتعدد أشكالها ليوضع هذا كله في ميزان النقد، ويرد إلى مذاهب الفن المختلفة، لتتدرج بينها أساليب النثر العربي في مراحل الصناعة، وتكتسب كل مرحلة مما أحاط بها من

ظروف العصر وأوضاعه الاجتماعية والثقافية، والحضارية أيضاً.. وكأن حركة التطور في النثر العربي كانت تواكب.. في رؤية شوقى ضيف - حركة الحياة في جميع مظاهرها.. ومن هنا كانت الوقفة التحليلية التي رأيناها تصنف الفن ومذاهبه في النثر العربي، يقول شوقيوفيف «وعلى سنن من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور تطوراً واسعاً، إذ حمل خلاصة هذه المدنية، وملئت أوانيه بشرابها الجديد الذي اختلفت ألوانه باختلاف يناييعه الكثيرة».

(العصر العباسي الأول ص ٤٤١)

ونقف الآن عند تطور الفنون النثرية القولية، كما بدت عند شوقى ضيف في العصر العباسي الأول، فزراها تشمل فن الخطبة والوعظ والقصص. أما الخطابة، فبينما تنشط الخطابة السياسية في مطالع هذا العصر لاتخاذ العباسيين لها أداة في بيان حقهم في الحكم.. (راجع العصر العباسي الأول ص ٤٤٨).. إذا بالخطابة الحقلية التي كنا نعدها من قبل قوية في عصر بني أمية تضعف الآن «لسبب طبيعي، وهو أن وفود العرب لم تعد تفد على قصور الخلفاء، وبالتالي لم يعد خطباؤها يفدون عليهم، فقد أسدلت الحجب بين الخليفة والرعية، ولم يعد يلقي وفودها ولا خطباءها المفوهين، واقتصرت الخطابة الحقلية حينئذ على بعض مناسبات.. (العصر العباسي الأول ص ٤٥٠)، أما الخطابة الدينية، فقد ظل لها ازدهارها.. «وعلى نحو ما كان الخلفاء، والولاة يشاركون فيها لعصر بني أمية، كانوا يشاركون فيها أيضاً لهذا العهد» (ص ٤٥١).

ويتابع شوقى ضيف استقراء نصوص الخطابة في العصر العباسي الثاني، فيرى الخطابة السياسية تضعف، وتضعف معها الخطابة الحقلية، أما الخطابة الدينية فهي «إن كانت قد ضعفت على ألسنة الخلفاء، فإنها نشطت نشاطاً عظيماً في المساجد» (العصر العباسي الثاني ص ٥٢٧).

ومن الفنون القولية فن الوعظ الذي يتصل بالخطابة الدينية التي مرت بنا، والذي نهض به فريق كبير من الوعاظ، كانوا «يستمدون دائماً من الذكر الحكيم، وأحاديث الرسول الكريم ﷺ، وأقوال الصحابة، ومن سبقوهم إلى الوعظ في العصر الأموي من مثل الحسن البصري.. وكثير من الوعاظ كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الديني وتفسير بعض آي القرآن، وهو مزج قديم منذ الصدر الأول للإسلام» (العصر العباسي الأول ص ٤٥٤) وإذا كان القصص والوعاظ، في العصر العباسي الأول، «وقد ارتقوا بصناعة النثر في المعاني التي كانوا يرددونها رقياً بعيداً» (العصر العباسي الأول ص ٤٥٦)، ففي العصر العباسي الثاني أخذت تنشأ «طبقة جديدة من الوعاظ، كانوا يسمون بالذكرين، ويسمى مجلسهم باسم مجلس الذكر أي ذكر الله وتسيبجه، وكانوا من الصوفية» (العصر العباسي الثاني ص ٥٢٨).. ليس هذا فحسب، بل «تكونت حول هؤلاء الوعاظ من المتصوفة سريعاً حكايات كثيرة تصور جهادهم العنيف في قمع شهوات النفس ولذاتها، وكيف كان الصوفي يفرض على نفسه عناءً شاقاً مضمناً لا يطيقه

إلا أولو العزم».. «وهذه الحكايات الصوفية أخذت تكون ضرباً من ضروب الآداب الشعبية العربية» (العباسي الثاني ص ٥٢٩). إذ كان الناس يتداولونها رجالاً ونساءً وشباباً، وكأن التصوف كان عاملاً قوياً في ظهور تلك الآداب، وطبعها بطواع الشعب ولغته وألفاظه» (العصر العباسي الثاني ص ٥٣٠).

ومن فنون النثر القولية أيضاً المناظرات.. التي «قلما عنى مؤرخو الأدب العباسي بالحديث عنها».. مع أنها كانت من أهم الفنون النثرية، وكانت تشغل الناس على اختلاف طبقاتهم، لسبب بسيط وهو أنها كثيراً ما كانت تنعقد في المساجد.. بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل لهذا العصر» (العصر العباسي الأول ص ٤٥٧).

أما المناظرات الكلامية التي حمل لواءها المعتزلة وغير المعتزلة، فقد نهضت بالنثر العباسي نهضة رائعة، كما يرى شوقي ضيف (الفن في النثر العربي ص ١٢٧) يقول: «واقراً في كتاب الحيوان للجاحظ، فلن تجد موضوعاً إلا خاضوا فيه، واستخرجوا منه معانيه، حتى لتظن أنه لم يكن هناك أديب بارع إلا وتستهو به تلك الجماعة، وتجذبه إلى ميادينها، ليبحث في الأسباب الكونية ومسبباتها، والعلل ومعلولاتها.. وقد دعتهم رغبتهم في إحكام لمناظراتهم، ومناقشاتهم، أن يبحثوا بحثاً واسعاً في بلاغة الكلام، وكيف يبلغ المتكلم بكلامه الكفاية وغاية الحاجة، بل كيف يروع السامعين ببيانه، وحلاوة ألفاظه، وحسن مخارج حروفه، حتى تسكن القلوب إليه، وتلج الصدور» (الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٣٠-١٣١) ويقول: «وقد ملأ الجاحظ نحو مجلد من كتابه الحيوان بمناظرة، انعقدت بين معبد والنظام في الكلب والديك أيها أفضل، ظل يورد أدلة كل منها في صورة رائعة، وهي صورة تدل دلالة بيّنة على مدى ما أصاب هؤلاء المتكلمون من تنوع لأفكارهم، وتصحيح لمقدماتهم وتصريف لأساليبهم وألفاظهم، وإذا كانت القدرة البيانية بلغت باثنين منهم هذا المبلغ في مساوئ الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره، فما بالك بما كان يجري بينهم في مسائل الدين واستقصاء كل مسألة وجمع معانيها وترتيب أفكارها وألفاظها؟» (الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٢٨-١٢٩). ويرى شوقي ضيف أن هذه القدرة البارعة في الجدل، وفي تأليف الحجج والأدلة، إنما «تدل على ما أصاب العقل العربي حينئذ من رقي، جعله يستقصى ما يتحدث عنه أحسن استقصاء، ويحرص فيه المقتكم على التدقيق والتعمق كأشد ما يكون التعمق والتدقيق، وكان يصحب ذلك بكثير من الظروف ومن السفسطة التي تدل على ترف العقل وارتفاعه عن الآراء الشائعة، ويصور ذلك من بعض الوجوه ما حكاها الجاحظ في فاتحة كتابه البخلاء، عن مذهب يسمى باسم الجهجاه» في تحسين الكذب في مواضع، وفي تقييح الصدق في مواضع، وفي إلحاق الكذب بمرتبة الصدق، وفي حط الصدق إلى موضع الكذب..» (العصر العباسي الأول ص ٤٦٢) ويرى شوقي ضيف أن هذا

التقييح للأشياء المستحسنة والتحسين للأشياء المستقبحة إذا كان قد «عرف في الأدب الفهلوى القديم، وأن العباسيين تأثروا في هذا الاتجاه بما كان منه في هذا الأدب». يقول.. «ونحن لا ننفي ذلك، وإنما نلاحظ أنه حتى إن صح فإن العباسيين توسعوا في هذا الاتجاه بتأثير مناظرات المتكلمين، وما داخلها من سفسطة أحياناً، بحيث أصبح هذا التحسين والتقييح نمطاً من أنماط التفكير العباسي، وبحيث عم في كل شيء، مما هياً فيما بعد لظهور كتب المحاسن والمساوي» (العصر العباسي الأول ص ٤٦٣).

أما إذا انتقلنا إلى ما بعد هذا العصر لنتابع دراسة شوقي ضيف لتطور المناظرات من بين فنون النثر القولية، في العصر العباسي الثاني.. فسنرى أن المعتزلة «لم يترجعوا عن الوظيفة التي ندبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل.. وظل الجدل عنيقاً بينهم وبين غيرهم من المتكلمين». (العصر العباسي الثاني ص ٥٣٥). كما كثرت المناظرات بين أصحاب المذاهب الفقهية. «وفي طبقات الشافعية للسبكي أطراف من هذه المناظرات.. وبالمثل كان اللغويون والنحاة يتناظرون، وشائعة معروفة مناظرات المبرد مع ثعلب..» (ص ٥٢٦).

ويقول شوقي ضيف «وحتى الكتب المؤلفة في هذا العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة، حتى على عنواناتها، إذ كثيراً ما تعنون كلمة الرد أو كلمة النقض، فالكتاب يؤلف رداً أو نقضاً لكتاب آخر، وكان المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات في المساجد، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات، ويوضح ذلك الجاحظ في بعض كتبه ورسائله.. وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية، فدائماً مناظرات ومجادلات في كل مكان وفي كل موضوع علمي أو فلسفي أو أدبي». (العصر العباسي الثاني ص ٥٣٩).

ويمضي التطور التاريخي لفن المناظرات بعد ذلك حتى نصل به - مع شوقي ضيف - إلى كتب المحاسن والأضداد كما ذكرنا من قبل، من ذلك كتاب المحاسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ، يقول شوقي ضيف: «ومما يشهد أن الكتاب ليس للجاحظ، وإنما هو لمؤلف تال لعصره أن نجد فيه نقولاً عن عبدالله بن المعتز، وكان في الثامنة من عمره حين توفي الجاحظ. الكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات في الأخلاق والشمائل، فكل خلق أو كل شيء تعرض محاسنه ثم تعرض معابيه، وتصور المعاييب والمحاسن في أخبار وأقاصيص وحكايات، تلتقى فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرب منها إلى كتب السمر، وفي مقدمتها الثقافة الإسلامية». (ص ٥٤١) ويقول شوقي ضيف «ويلتقى بهذا الكتاب في موضوعاته وأكثر مادته كتاب المحاسن والمساوي لإبراهيم بن محمد البيهقي.. وطبيعي أن تكون مصادر هذا الكتاب هي نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ، لأنه ليس أكثر من نسخة مجددة له» (ص ٥٤٦ - ٥٤٧).

وإذا كان ما رأيناه فيما سبق يتصل جميعه بفنون النثر القولية.. فإن الفنون الثرية الكتابية، قد انفتحت أمامها أبواب التقدم والرقى والأصالة في العصر العباسى في صورة لم يشهدها تاريخ النثر العربى قبل هذا العصر، وربما كان ذلك ايضاً بعده حتى مطلع العصر الحديث، تلك هى الصورة التى يرسمها منهج شوقى ضيف الذى عرفنا خطواته السابقة، ونعرف الآن كيف تمضى بنا قدما لتقف بنا بعد ذلك وقفة خاصة، عند فن الكتابة التى نشطت نشاطاً واسعاً فى هذا العصر، «فقد توفر عليها - كما يقول شوقى ضيف - منات من أصحاب الأقلام يجدهم فى ذلك ما كانت تدره عليهم من أرزاق واسعة، وكان من يظهر منهم مهارة فى دووين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رياسة الديوان الذى يعمل فيه، وقد تقبل عليه الدنيا فيصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين، وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة، ويدبر أموره وشئونها، فإن لم يصبح وزيراً أصبح والياً لإقليم من الأقاليم... وعلى هذا النحو كانت الكتابة فى هذا العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب، وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يلقى الإكبار والإعجاب فى كل مكان». (العصر العباسى الأول ص ٤٦٥).. ويقول شوقى ضيف «ومن ينظر نظرة عامة فى موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة، وما يتصل بها من تولية الولاة، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد، والأمان، وأخبار الولايات وأحوالها فى المطر والخصب، والجذب ووصاياهم، ووصايا الوزراء والحكام فى تدبير السياسة والحكم». (العصر العباسى الأول ص ٤٦٨).

ومع العصر العباسى الثانى كانت الدواوين فى سامراء بغداد أشبه بمدرسة فنية كبيرة، يفد عليها الشباب ويختبرون اختباراً دقيقاً.. ولا ريب أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة، وهو تنافس دفع إلى التنقف الواسع بكل ألوان الثقافات، وفى مقدمتها الثقافة اللغوية». (العصر العباسى الثانى ص ٥٥٠ - ٥٥١).. «وقد أخذ كتاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى يصطنعون السجع فى جوانب من رسائلهم... وحقا أخذ السجع يدخل فى الرسائل الشخصية، منذ القرن الثانى كما صور ذلك كتاب العصر العباسى الأول على نحو ما يلقانا فى رسالة ابن سيابة المشهورة، ولكن الرسائل الديوانية، ظلت تكتب بأسلوب مرسل، يشيع فيه أحياناً الأزدواج، أما السجع فيندر أن نلتقى به فى تلك الرسائل، وكان الأذواق أخذت تستعد لشيوعه، وانتشاره فى الكتابة الديوانية لهذا العصر». (العصر العباسى الثانى ص ٥٥٥) لكن السجع لم يلبث أن «أصبح ظاهرة عامة فى الرسائل الديوانية» (ص ٥٦٠)... حتى أصبح «لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة، بل مع أواخر القرن الثالث، فليس هناك كاتب إلا ويسجع، وإن فاته السجع فى مكان من رسالته عاد إليه فى الأمكنة الأخرى» (ص ٥٦١). بل إن «السجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين،

فالمسائل تمتلئ بزخارفه ولآلئه، إذ غدا المثل الأعلى للجمال الفني في الكتابة الديوانية، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله، ولا بد من تساوق أنغامه وألحانه في الكلام» (ص ٥٦٢).

ويقف الدكتور شوقي ضيف عند فنون النثر الكتابي الأخرى في العصر العباسي الأول مثل فن التوقيعات، وهى كما يقول «عبارات موجزة بليغة تعود ملوك الفرس، ووزراؤهم، أن وقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكاواهم، وحاكاهم خلفاء بنى العباس، ووزراؤهم في هذا الصنيع... ودارت في الكتب الأدبية توقيعات كثيرة أثرت لكل خليفة عباسي كل وزير خطير... ولعل وزيراً لم يبرع في التوقيعات براعة جعفر بن يحيى البرمكى... قال ابن خلدون: (كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدى الرشيد ويرمى بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل انها كانت تباع كل قصة منها بدينار» (العصر العباسي الأول ص ٤٨٩ - ٤٩٠).

وننتقل بعد هذا مع الدكتور شوقي ضيف إلى الرسائل الإخوانية والأدبية، فقد نمت هذه الرسائل في العصر العباسي الأول نمواً واسعاً «تصور - كما يقول - عواطف الأفراد ومشاعرهم، من رغبة ورهبة، ومن مديح وهجاء، ومن عتاب واعتذار واستعطاف، ومن تهنئة واستمناع، ورتاء أو تعزية، وكانت هذه العواطف تؤدي في العصر الأموي بالشعر، وكان من النادر أن تؤدي بالنثر، أما في هذا العصر فقد زاغحمفيها النثر الشعر بنكب ضخم، وأتاح له ذلك أمران: أولاً ظهور طبقة ممتازة من الكتاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة، وخاصة من كان منهم يكتب في الدواوين، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة، وكانوا يعنون بتحرير كلامهم، وتجويده وحشد كل ما يمكن فيه من عناية فنية.. والأمر الثانى مرونة النثر ويسر تعابيره وقدرته على تصوير المعانى بجميع تفاريعها قدرة، لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية. وقد طوع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه، ومرنوها على أن تحمل كثيراً من المعانى الجديدة غير المألوفة، وبذلك كله ثبت النثر للشعر في التعبير عن العواطف التى طالما عبر عنها، بل لقد أظهر في ذلك طواعية لعلها لم تكن تتاح حتى لكبار الشعراء» (العصر العباسي الأول ص ٤٩١).

ويقول شوقي ضيف «ومما يدل دلالة واضحة على أنه رقى في هذا العصر رقىاً واسعاً، حتى في المجال العاطفى الخالص الذى طالما مرنت اللغة على أدائه شعراً، وهو رقى تتزاورج فيه المادة العقلية بما استنبط الكتاب من دقائق المعانى، واللذة الشعورية بما استنبطوا من دقائق الأحاسيس والصور، وما بثوا في ألفاظهم من حسن الاختيار للصيغ، من جمال التقابل بين العبارات والجمل، حتى ليحاول بعض الكتاب أن يسجع في كلامه، حتى يصوغه صياغة موسيقية تامة» (ص ٤٩٨). «وعلى هذا النحو لم يترك الكتاب فناً من فنون الشعر إلا كتبوا فيه،

وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطبين تارة أخرى، محاول بكل ما استطاعوا أن يظهرُوا القارئ على براعتهم وتفننهم في الأداء». (ص ٥٠٠)، بل لقد «دفعهم تفننهم في بعضها أن يتحولوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة، وهي التي تتناول خصال النفس الإنسانية، وتصور أهواءها وأخلاقها، وتوضح لها طريقها إلى الخير، حتى لا تسقط في مهاري الشر..» (العصر العباسي الأول ص ٥٠٢).

وفي العصر العباسي الثاني تستمر منافسة النثر للشعر في مجالاته الخاصة، وهي مجالات الوجدان.. «حتى لنرى قوماً إذا سئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعراً أو نثراً فضّلوا أن يكون نثراً» (العصر العباسي الثاني ص ٥٦٢).. ويؤرخ شوقي ضيف لتطور النثر الفني في هذا المجال متتبعاً موضوعاته ومراحله، ويقول: «كان الكتاب يكثر من الدعوة للزيارة، ولقضاء بعض الوقت في اللهو ولسماع الغناء أو للسمر والطعام. وأكثروا من التهانى في كل مناسبة في الأعياد، وفي الزواج وفي إنجاب الأولاد وفي ختانهم، وفي الحج وقضاء مناسكه، وفي وصف الطبيعة شتاء وفي الربيع، وقد تعقبنا انتشار السجع في الرسائل الإخوانية طوال العصر لندل على أن ذوقاً عاماً أخذ يعنى به، وهي عناية جعلته يعم في تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث، بل لقد أخذ يعم - منذ أواسطه... ولم يقف انتشار السجع وشيوعه منذ انتشار الرسائل الإخوانية والديوانية، فقد أخذ يشيع في الرسائل الأدبية الخالصة، وكان الجاحظ قد أشاع في تلك الرسائل أسلوب الازدواج المعروف به، غير أن من تلوه في القرن الثالث الهجري أخذوا يدخلون عليها السجع ويكثر من منه، على نحو ما تصور ذلك رسالة لابن المعتز، كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامراء ويأسى لخرابها «ويذم بغداد وأهلها، وهي أشبه بمنظرة بين البلدين: العاصمة القديمة سامراء، والعاصمة الجديدة بغداد.. ويطل القرن الرابع، وإذا هذه العناية تصيح هي الذوق العام في الكتابة الأدبية، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفني الجديد أسلوب السجع وما يطوى فيه من زخارف البديع». (العصر العباسي الثاني ص ٥٧٠ - ٥٧١، ٥٧٣).

ويتبع بحث هذا التطور في تاريخ النثر العربي لهذا العصر العباسي في مرحلتيه الأولى والثانية - عند شوقي ضيف - دراسة تختص بأعلام الكتاب في العصرين.. أما العصر العباسي الأول، فقد شهد ابن المقفع، وسهل بن هارون، وأحمد بن يوسف، وعمرو بن مسعدة، ومحمد بن عبد الملك الزيات.. وكان لكل واحد من هؤلاء دوره في النهوض بالنثر العربي لهذا العصر.. غير أن ابن المقفع خاصة - كما يرى شوقي ضيف - «كان من أوائل من وطدوا هذا الأسلوب العباسي المولد، إن لم يكن أول من وطده وخاصة في ميدان الترجمة، وهو أسلوب يقوم على السهولة والوضوح مع توفير الجزالة والرصانة، وكان يعتمد فيه على الإيجاز،

فالمعاني تؤدي بأقل الألفاظ دون أن تقصر عنها، ودون أن تطول طولاً يجحف حقوقها، ولعل ذلك هو الذى جعله يعدل عن أسلوب السجع، وكذلك عن أسلوب الترادف الصوتى، الذى سبق أن لاحظناه عند الوعاظ وعند عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم.. لقد كانت غايته أن يوفق بين اللفظ الدال والمعنى المدلول... وقد ظلت القرون التالية تتداول كثيراً مما ترجمه، وخاصة كليله ودمنه والأدب الكبير والأدب الصغير، وهذا الصمود للتداول مرجعه هذا التعاون الوثيق بين المعنى الحصيف واللفظ الرشيق» (الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٤٣-١٤٤).

أما سهل بن هارون، فيظهر أنه كان «أهم كاتب ظهر خلال القرن الثانى الهجرى»، وإن لم تصلنا من آثاره إلا «بقية ضئيلة من هذا المجهود الضخم الذى وصفه الجاحظ وابن النديم وأمثالهما». يقول شوقى ضيف «ولولا أن الجاحظ احتفظ لنا فى كتابى البخلاء، والبيان والتبيين، بأطراف من عمله ما استطعنا أن نصدر حكماً دقيقاً على صياغته ولا على صنعته». (ص ١٤٩). وفى تتبع روح الأسلوب فى كتابته وحركة الفن فيه يقول شوقى ضيف «ما من ريب فى أن صوت سهل قد اتضح لنا الآن بجميع خصائصه، فهو يعمد إلى الجدل والدقة فى الحوار، كما يعمد إلى شىء طريف فى أسلوبه، إذ نرى الألفاظ تتوازن، لكن لا فى شكل سجع بل فى شكل تقطيعات دقيقة، وكأنى بسهل لم يكن يعمد إلى أداء أفكاره بلفظ فصيح فقط كما كان يصنع ابن المقفع، بل كان يعمد إلى ضروب من التوقيع الصوتى فى اللفظ حتى تستقيم لأسلوبه فنون من الجمال المادى الذى يخلب سامعيه، كى يؤثر فى وجدانهم وعواطفهم، بجانب ما يؤثر به فى عقولهم من حجاجه وجدله والتماسه للبراهين والأدلة على أفكاره... وعلى هذا النحو كانت تندمج فى أساليبه خصائص موسيقية فى خصائص أخرى عقلية نلمحها فى هذا الجدل، وهذا الحوار، وما يبدو عليه من تلاوين عقلية أحدثتها الثقافة الفلسفية فى تفكيره وأدائه لمعانيه، وقد كان يعرف كيف يوازن بين هذه التلاوين العقلية وما سبقها من تلاوين موسيقية، فتخرج أساليبه وقد التمتعت عليها شيات من التأمل والعقل الدقيق، كما التفت عليها شيات أخرى من التوقيع والترادف الموسيقى، وسنرى ذه الشيات جميعاً تمتد تحت أعيننا فى كل ما ديج الجاحظ وحبره من رسائل، وإنه ليتأثر فى هذه النزعة سهلاً من طرف، وبيئة المتكلمين الذين نشأ فيهم من طرف آخر». (الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٥١ - ١٥٢).

ومع رصد الباحث لحركة الفن هذه التى تمتد من أسلوب سهل بن هارون إلى أدب الجاحظ نصل مع شوقى ضيف إلى الجاحظ الذى يوضع «على رأس كتاب العصر العباسى غير مدافع ولا منازع» (ص ١٥٤). ومن هؤلاء الكتاب إبراهيم بن العباس الصولى، وابن قتيبة، وسعيد بن حميد، وأبو العباس بن ثوابة.

فللجاحظ «نقدٌ يقف فى بيئة المعتزلة الجدلة للسنة، وبيانٌ متأثر بكتابات عصره وخاصة

كتابات سهل الذى كان يشغف به كما لاحظ ابن النديم فى فهرسته، ونحن لا نصل إلى القرن الثالث حتى نجدده وقد ستوت له شهرة فائقة بين كتاب عصره...» (الفن ومذاهبه ص ١٥٦). فلم يترك موضوعاً عاماً إلا وكتب فيه رسالة أو كتاباً، وأن من يرجع إلى رسائله وكتبه يجده قد ألف فى النبات، وفى الشجر، وفى الحيوان، وفى الإنسان وفى المعاد والمعاش وفى الجد والهزل، وفى الترك والسودان وفى المعلمين والقبان، وفى الجوارى والغلمان، وفى العشق والنساء، وفى النبيذ وفى الشيعة والعباسية، وفى الزيدية والرافضة، وفى الرد على النصارى وفى حجج النبوة ونظم القرآن وفى البيان والتبيين، وفى حيل لصوص النهار وحيل سرآق الليل، وفى البخلاء واحتجاج الأشحاء. وإن فى هذا ما يدل - كما يقول شوقى ضيف - على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات فى خلاصة وبيان عذب، وكأنى به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألفاظ ترصف، وإنما كان يفهمها على أنها معان تنسق فى موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالإنسان. وكان لذلك صنعته الخاصة فى كتابته، فإنها كانت ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب» (ص ١٦٠-١٦١) ويقول شوقى ضيف «وأكبر الظن أننا لا نبعد إذا قلنا إن الصفات الفنية الأساسية فى كتابات الجاحظ هى الواقعية والاستطراد، وضروب من التلوين الصوتى، وأخرى من التلوين العقبى» (الفن ومذاهبه ص ١٦٢).

وهذا التفاضل إلى سر الفن البياني عند الجاحظ يقف شوقى ضيف ليفصل هذه العناصر الفنية الأربعة فى كتاباته.. ويعتصر الباحث فى نقده وتحليله النصوص الأدبية المختلفة التى تسلك طريقها من أجل التوصل إلى مذهب الفن فى أدب هذا الكاتب الكبير.. ويقف شوقى ضيف بعد ذلك وقفة تحليلية خاصة عند رسالة للجاحظ «تجمع بين دفتيها محاسن التفكير الدقيق، والتعبير الأنيق» وهى رسالة الترييع والتدوير (الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٧٧-١٨٨)، لنجد هذه العناصر الأربعة كلها مجتمعة متبلورة فى هذه الصنعة الجاحظية. ونخرج من هذا كله إلى أن مذهب الصنعة من بين مذاهب الفن هو الذى غلب على النثر العربى فى العصر العباسى، قبل أن يتحول به الطريق مع نهاية القرن الثالث، وبداية القرن الرابع، حين استخدم أسلوب السجع الذى يتكامل به - كما يقول شوقى ضيف - «أحد الجانبين الأساسيين فى مذهب التصنيع، وهما السجع والبديع» (الفن ومذاهبه ص ٢٠١). أما الجانب الثانى، وهو جانب البديع، فهو ما سيتحقق فى صورته الواضحة عندما ندخل عصر الدول والإمارات الذى يعتبره شوقى ضيف عصرًا مستقلًا عن العصر العباسى، تاليًا له، مختلفًا عنه.

أ. د. سعيد منصور

أستاذ الأدب العربى

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية